مجلة معهد الإمام الشاطبي

التناسق الصوتي في القرآن الكريم سورة مريم أنموذجاً

د . عبد الرحمن بن رجاء الله الجامعي السلمي

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية /جامعة الملك عبد العزيز

- من مواليد عام ١٣٩٢هـ بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة عام ١٤١٨هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٢٥هـ بأطروحته: **"شعر الأسر بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد"**، كما نال منه أيضا شهادة الدكتوراه عام ١٤٢٨هـ بأطروحته: **"خطب خلفاء بني أمية وأمرائهم: خصائصها الموضوعية وسماتها الفنية"**.
- من بحوثه المحكمة المنشورة: **" النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية: الموقف والمنهج"، " دعاء الأنبياء في القرآن الكريم: دراسة بلاغية تحليلية" ،"كنز الإيجاز في شرح علاقات المجاز لحسن جمال الدين الحلبي: تحقيق ودراسة"**.
- البريد الشبكي: alsulami101@hotmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث أسرار التناسق الصوتي في النظم القرآني في سورة مريم محاولاً الكشف عن طبيعة الإعجاز الصوتي وتعزيز العلاقة بين الصوت وما يدل عليه من المعنى سواءً أكان بواسطة المحاكاة أو الإيحاء، متناولاً في التمهيد مفهوم التناسق الصوتي، وأهميته وأسس التناسق الصوتي في سورة مريم، ثم تناول البحث التناسق الصوتي في مطلع السورة وصلته بالمقصد والتناسق الصوتي في صفات المتحدث عنهم والتناسق الصوتي في جزاء المُتحدَّث عنهم، ثم ختم هذا البحث بالحديث عن التناسق الصوتي في ختام السورة وصلته بالمطلع والمقصد.

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن للتناسق الصوتي وضعاً خاصاً في النّص القرآني الكريم، فالصوت هو البنية اللغوية الصغرى المكونة للكلمات والتراكيب القرآنية، إضافة إلى أنّه عنصر أساس في الإعجاز القرآني فالقرآن الكريم ينتقي الأصوات اللغوية بحسب دلالتها؛ قصدا لتجسيد المعاني وتجسيم هيئاتها في أحسن صورة. وتتسم الحروف والكلمات والتراكيب في النّص القرآني بقوة التأثير الصوتي الناتج عن سهولتها وانتقائها ومواءمتها للمعاني المعبّر عنها، وإحساس الأذن بعذوبتها حين الترتيل والتجويد، إضافة إلى محاكاتها لهيئة الصوت والانسجام معه لتعزيز المعنى، وتأكيده في النفس.

وقد أكسب هذا التناسق الصوتي النص القرآني خصوصية دون سائر النصوص الأدبية الأخرى، فأصبح ميسّرا للترتيل، «متلواً لا يُمَلُّ على طول التلاوة، ومسموعاً لا تمجُّه الآذان، وغضّاً لا يَخْلَقُ من كثرة الترداد» (١).

وهذا التأثير الصوتي الفريد في استخدام أصوات اللغة وتوظيفها على نحو بليغ هو مانعنيه بالتناسق الصوتي في سياقات النّص القرآني وما يؤديه من تأثيرات ملموسة على الدلالات البلاغية.

ولا شك أنَّ البحث الذي يروم الكشف عن سرِّ التناسب والتلاؤم الصوتي من خلال كشف العلاقة بين الصوت والمعنى المعبر عنه، أو الربط الصوتي بين مطلع السورة وختامها وصلة ذلك بالمقصد بحث محفوف بالخفاء والغموض وقد أدرك العلماء خفاء التناسب والتلاؤم في النّص القرآني، فقال الزركشي «هو يخفى تارة

(١) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ٨٩-٩٠.

ويظهر أخرى»[١]. ولخفائه ودقته وصفه السيوطي بالشرف[٢]. وقد يكشف الله تعالى للمتدبر والمتفكر في تأويل القرآن ومعانيه ما لا يفتح على غيره، ولن يستطيع أحدٌ مهما أوتي من ملكات علمية وعقلية أن يحيط بأسرار القرآن ولطائفه، وقد قيل: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في كتابه، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه... وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله على قلبه»[٣].

ومن هنا أحببت أن أقدم هذا البحث المعنون بـ (**التناسق الصوتي في القرآن الكريم، سورة مريم أنموذجاً**).

وقد تناول البحث أوجه التناسق والتلاؤم الصوتي في سورة مريم محاولاً الكشف عن الإعجاز الصوتي وبيان طبيعة العلاقة بين الصوت وما يدل عليه من المعنى سواءً أكان بواسطة المحاكاة أم الإيحاء.

خطة البحث:

نظراً لامتداد الموضوع وتشعب جوانبه فقد أوجزته في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أشرت إلى أهمية الموضوع وخطته، ومنهجه.

التمهيد وفيه:

- مفهوم التناسق الصوتي، وأهميته.
- أسس التناسق الصوتي في سورة (مريم).

المبحث الأول: التناسق الصوتي في مطلع السورة وصلته بالمقصد.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ١٠٨.

(٣) تفسير البسيط، الواحدي، ١/ ٣٤.

المبحث الثاني : التناسق الصوتي في صفات المُتحدَّث عنهم.

المبحث الثالث : التناسق الصوتي في جزاء المُتحدَّث عنهم.

المبحث الرابع : التناسق الصوتي في ختام السورة وصلته بالمطلع والمقصد.

الخاتمة : وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

منهج البحث:

حرصت في هذا البحث أن أسلك المنهج التطبيقي التحليلي القائم على التذوق الجمالي للإيقاع الصوتي للنص القرآني الكريم في سورة مريم محاولا الكشف عن أثر ذلك في جماليات النظم وإبراز مظاهر الإعجاز الصوتي من خلال ملاحظة العلاقات الوثيقة بين الصوت والمعنى المعبر عنه، والتماس أوجه التلاؤم الصوتي وصولاً إلى بيان حقيقة أنَّ الإيقاع القرآني بناءٌ محكم، وتركيب قائم على أساس علاقات رابطة، وقواعد راسخة تؤكد بنائية النَّص القرآني صوتياً.

والله أسأل العون والسداد، وأن يلهمنا الحقّ والصواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

مفهوم النسق الصوتي:

النسق من كل شيء ما كان على طريقة منتظمة، والتنسيق النظام، والنسق من الكلام ما جاء على نظام واحد، يقال: نسق الدر ونسّقه، ودر منسق، وتنسقت الأشياء، وتناسقت، وكلام متناسق، وقد تناسق كلامه، أي: جاء على نسق ونظام. ونسق الأسنان: انتظامها، وحسن تركيبها وغرست النخل نسقاً[(١)].

من خلال القراءة المعجمية لمادة (نسق) يمكن القول: إنَّ التناسق هو الانسجام والانتظام والتلاؤم، وضم الأشياء بعضها إلى بعض في نسق واحد وصورة منتظمة.

والتناسق بعد ذلك ألوان متعددة، منها التناسق بين العبارات بتخير الألفاظ ثم نظماً في نسق خاص، ومنها التناسق المعنوي بين الأغراض، والتناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في التعبير والخطوات النفسية التي تصاحبها، ومنها التناسق بين أجزاء الصورة، ومنها التناسق الصوتي الذي يتناوله هذا الموضوع، «ومن هذه الألوان ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن، ومنها ما لم يمسسه أحد منهم حتى الآن»[(٢)].

والتناسق الصوتي يقصد به: التلاؤم الصوتي بين سمات الحروف في الكلمة وتوالي الكلمات في النظم ومعانيها وغرضها الذي جاءت له.

ومع أنّ هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن الكريم، وذات عمق كبير في بنائه الفني؛ فإن معظم الدراسات البلاغية للنص القرآني تقف عند الإيقاع الظاهر، ولا تتجاوز ذلك إلى إدراك التناسق الصوتي الداخلي للنص القرآني، في تنوعه وتشكيلاته، وفي كمياته ودرجاته، حسب ما يقتضيه المعنى، وتلاؤم ذلك كله

---

(١) ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري، مادة (نسق). ولسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٣٥٢، مادة (نسق).

(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص٨٧.

مع الجوّ العام الذي يطلق فيه هذا الإيقاع الصوتي ووظيفته التي يؤديها في كل سياق.

وقد عنى العلماء ببحث التناسق والتناسب في النَّص القرآني بشكل عام وأفاضوا في أهميته لما له من الأثر الكبير في تدبر معاني القرآن الكريم وتذوق دلالاته؛ ففائدته: «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»(١).

وهو يفيد في تحقيق مطابقة المعاني لما تقتضيه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصد السورة وتصاعد معانيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها (٢).

وقد أشار الإمام الرازي إلى أنَّ:«أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(٣) وبناء على ذلك فالرؤية التي يسعى إليها بحث التناسق هي التماس أوجه التلاؤم الصوتي في النَّص القرآني وصولاً إلى بيان أنَّ النص القرآني بناءٌ محكم وتركيب قائم على أساس علاقات رابطة وقواعد راسخة تؤكد هذا الفهم وتدفع إلى إثبات حقيقة بنائية النَّص القرآني صوتياً.

والصوت لغة: الجرس، والجمع أصوات، ورجل صيّت: أي شديد الصوت، ورجل صائت: أي حسن الصوت(٤).

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ١٣١، وقد انبرى عدد من العلماء لهذا الموضوع وأفردوه بمصنفات مستقلة، من أشهرهم أبو الحسن البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) في كتابيه: (تناسق الدرر في تناسب السور) و(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ١/ ٥ ـ ٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٤٠.

(٤) ينظر: لسان العرب، ٢/ ٥٧، مادة صوت.

وهو كما يقول الجاحظ: «آلة النطق، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف»(١).

وفي الدرس الحديث: أثر سمعي تحدثه موجات ناشئة من اهتزاز جسم ما(٢).

وقد سجلت ألفاظ القرآن الكريم قمة التناسق بين أصواتها والمعاني المعبر عنها من خلال توظيف الصوت داخل الكلمة لخدمة المعنى المقصود.

أهمية التناسق الصوتي وأثره في الإعجاز:

يعد التلاؤم والانسجام المنبعث من تآلف الحروف في الكلمات وتناسق الكلمات في الجمل، من أبرز خصائص اللغة العربية التي تبهر الباحثين فاللغة في جوهرها: «أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم»(٣). وهذ المفهوم يشير إلى أمرين أساسيين هما: طبيعة اللغة فهي؛ عبارة عن أثر سمعي هو: الصوت اللغوي. والأمر الثاني يتعلق بوظيفة اللغة في التعبير والإفصاح عمّا في النفس، في إطار يتم داخل نسق اجتماعي.

وتعد ظاهرة المناسبة بين الصوت والمعنى في اللغة العربية من الأمور التي شغلت عدداً من اللغويين العرب القدامى، وقد أشار السيوطي إلى أنّ « لفيفا من علماء العربية وأهلها كانوا يطبقون جميعا على إثبات المناسبة بين اللفظ والمعنى»(٤).

ولعلّ ابن جنّي من أكثر علماء اللغة تحمسا للقضية حيث عقد لها فصولا تتبع فيها الاقتران الطبيعي بين الأسماء ومسمياتها وركز على إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها على المعنى وأكد أنَّ بين الأصوات ومعانيها

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ١/ ٧٩.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون،١/ ٥٢٧.

(٣) الخصائص، ١/ ٣٣.

(٤) المزهر في علوم اللغة، ص ٤٩-٤٨.

تناسباً وتلاؤما فقال: «فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع... وذلك أنَّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المُعبَّر بها عنها»(١).

وإعجاز القرآن الكريم المتمثل في نظمه وتركيبه يبدأ من هذه الوحدة الصغرى (الصوت) التي تشكل بناء المفردات، التي بدورها تشكل بناء الجمل والتراكيب.

فاختيار الحروف يسهم في تشكيل الأنغام الحسنة، ويزيد من الإيقاع المؤثر، حتى يصبح الكلام «متحدراً كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه، وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك»(٢).

والبناء الصوتي في النص القرآني يضفي إيقاعاً موسيقياً مميزاً، وذلك من خلال تناسقات صوتية تتكرر وتتوازى عبر التوزيع والانسجام لآيات السورة، وهذا التناسق يسهم في كشف أسرار التشكيل الإيقاعي، وإبراز الطاقة الدلالية المختلفة.

وفي النص القرآني نلحظ الترابط الوشيج بين الجرس الصوتي، ودلالة المعنى، من خلال تَخيُّر الألفاظ الذي يقوم على أساس من تحقيق الإيقاع الموسيقي المُتَّسق مع جوِّ الآية، وجوِّ السياق، بل جوِّ السورة كاملة كما في سورة مريم.

وهذا التناسق الصوتي الناتج عن الانسجام والتلاؤم بين الأصوات والكلمات، سرعان ما يؤدي إلى التأثير والانبهار. وفي ذلك يقول الرافعي: «فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنَّها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها»(٣).

كما نلحظ تَميُّز النصِّ القرآني في تعميق العلاقة بين المعنى في النفس وبين تجلّيه في التشكيل الصوتي. وقد أشار الرافعي إلى ذلك بقوله:«ليس يخفى أنَّ مادة الصوت

(١) الخصائص، ٢/ ١٥٧.

(٢) الاتقان في علوم القرآن، ٢/ ١٦١.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص٢١٤.

هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدّا أو غنَّة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه، وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها»(١).

أسس التناسق الصوتي في سورة مريم:

التناسق الصوتي في النّص القرآني يأتي على هيئة خاصَّة من التشكل سواءٌ أكان ذلك في كلماته أو جمله أو آياته، أو كان على مستوى إيقاع السورة ذاتها.

فيأتي الصوت متلازماً ومتسقاً ومنسجماً مع المعاني التي يهدف إليها القرآن الكريم، وهي مواءمة ومطابقة عجيبة، لا يمكن أن تحدث في كلام بشر بهذه الدقة من التطابق والتناسب لمعاني الكلام.

حتى أصبح وحدة تركيبية متراصة متلاحمة في وحدة فنية رائعة «وقد بلغت هذه الخاصَّة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق»(٢).

ويمكن إجمال أبرز أسس التناسب الصوتي فيما يأتي:

- التلاؤم بين المعاني الغريبة أو الشديدة وعكسها، مع الأصوات الغريبة وعكسها، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَـٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥] حيث ترى كيف أتى سبحانه بأغرب ألفاظ القسم (تالله) وعدل عن (والله) وبـ(الله) التي هي أكثر استعمالاً وأشهر عند المخاطبين من (تالله)؛ وذلك لأنّ الفعل الذي جاور القسم (تفتأ) أغرب صيغ الأفعال الناسخة، وبقية أخواتها أكثر استعمالاً منها وأعرف عند المخاطبين، ثم ناسب أن يأتي بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك وهي لفظة «الحرض».(٣)

(١) المصدر السابق، ص٢١٥.
(٢) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص ٣٩.
(٣) ينظر: أسس التحليل البلاغي بين النظرية والتطبيق، علي عبدالحميد عيسى، ص٩١.

وهكذا اقتضى حسن النسق قي النظم أن تجاور كل لفظة بالتي من جنسها في الغرابة وتقرن بها لحسن التلاؤم ورعاية لائتلاف المعاني بالألفاظ.

وقد أشار الجاحظ إلى ذلك التلاؤم بقوله: «سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني»(1).

وهكذا تجد التناسق الصوتي بين الألفاظ بيِّناً في سورة (مريم) كما في شيوع ألفاظ الرحمة تناسبا مع مقصود السورة وغرضها، وسيتضح ذلك في ثنايا البحث، وكما في اختيار لفظ (إدّا) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ [مريم: ٨٨،٨٩] للدلالة على شدة فظاعة هذا القول وغرابته، ولذا لم يقل مثلا قولا عظيماً، أو كبيراً، مما لا يليق بجلال الله وعظمته، وإنما اختار اللفظ الغريب الذي يناسب غرابة قولهم ولذا عقب على قولهم هذا بما يدل على غاية غرابته بقوله تعالى:﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾، فـ (الإدّ) الأمر الشنيع الصعب، وهي الدواهي، والشنع العظيمة(2)، وقد جاء في بعض الآثار أنّ هذه المقالة أوّل ما قيلت في العالم، شاك الشجر، وحدثت مرائره، واستعرت جهنم، وغضبت الملائكة(3).

وكما في اختيار لفظ (الأزّ) وهو أشد أنواع الهزّ، عند إرسال الشياطين على الكافرين في قوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ وأما مع مريم وقد جاءها المخاض فقد عبر بالهزّ لملاءمته لحالها كما سيأتي لاحقا.

وكذا في اختيار كلمة (وَٱشۡتَعَلَ) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [مريم:٤] دون (ابيضّ) مثلا لما في اشتعل من التناسب بين

(١) ينظر: البيان والتبيين، ١/ ١٤٥

(٢) لسان العرب، ٣/ ٧١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٣

جرسها وحروفها وما توحي به من الدلالة على مفاجأة الشيب وشيوعه السريع .

- الترقي، سواء في المعنى وصلته بالسورة كما في الترقي في وصف سيدنا موسى، عليه السلام، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥١] وكما في الترقي في وصف سيدنا إدريس، عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦] فالترقي في التشريف والرفعة، يناسبه تأخير (نَّبِيًّا) في الموضعين، هذا فضلا عن التناسق الصوتي في بناء الفاصلة على حرف اللين مما يتناسب مع فواصل سورة مريم.

أو كان الترقي في الشدة كما في الترقي في شدة الجزاء والعقاب في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٠] وانظر إلى ذلك الترقي في الشدة من الحشر إلى النزع ثم الصلي.

- التناظر بين الألفاظ بعضها مع بعض، سواء أكان ذلك على سبيل التوافق، كما في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢] وما في التناسب والتوافق بين ذكر الرب وذكر الرحمة، أم على سبيل التضاد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] وما في التقابل بين ذكر الرب والشقاء، فظاهر لفظ الرب ينافي حدوث الشقاء؛ إذ الرب فيه معنى الرحمة والرأفة والشفقة وكل هذا ينافي الشقاء، ولكن سيدنا زكريا عليه السلام أراد بذكر الرب إظهار مدى حاجته إلى شفقة الرب ورحمته في نفي الشقاء عن نفسه.

❀ ❀ ❀

المبحث الأول

التناسق الصوتي في مطلع السورة وصلته بالمقصد

وأول ما يلقانا في مستهل هذه السورة تلك الفاتحة الاستهلالية بالحروف المقطعة التي تفتح السبيل لما يلقى بعدها فهي بمثابة الإثارة الذهنية للمتلقي وافتتاح السورة بهذه الحروف (كاف – ها – يا – عين – صاد) لا يخلو من أبعاد نفسية وصوتية؛ لما في هذه الحروف من إشباع بالمد، وبراعة استهلال تتهيأ معها نفسية القارئ لما يلقى عليه، إضافة لما تحمل من دلالات إيحائية في كونها خروجا عن المألوف، والمجيء بما ليس مألوفا من استعمالات أساليب العرب يثير الدهشة ويحقق عنصر المفاجأة التي تحفز المتلقي للانتباه والتأهب لما يتضمنه الخطاب من توجيه، إضافة إلى كون هذا برهاناً ساطعاً على أن القرآن الكريم منتظم من الحروف التي ينظم بها العرب كلامهم، ممثلة كل الظواهر الصوتية الموجودة في اللغة العربية(١).

وإنما لم يستعمل القرآن الكريم الكلمات المشهورة في التنبيه كألا، وأمّا؛ لأنّها من الألفاظ التي يتعارف عليها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبهه كلام، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد؛ لتكون أبلغ في قرع سمعه(٢). والإيثار الصوتي لهذه الحروف نلحظه من خلال ما في هذه الحروف من مد ومدى تلاؤمه مع أمرين:

– معاني المقصد، وما في مقصد السورة؛ إذ شاع في السورة ذكر الرحمة وصنوفها وصورها شيوعا بيِّناً أكثر مما هو موجود في غيرها من سور القرآن الكريم، فالجو الخاص الذي يظلل السورة ويشيع فيها ويتخلل موضوعاتها هو جو الرحمة

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٤٤.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٢٧.

والرضى والرعاية، ومن هنا كان التناسب والتلاؤم بين الحروف المقطعة في مطلع السورة، وما فيها من مد الصوت، واطراد فاصلة السورة على حروف المد أو الترنيم؛ مما يظهر التناسق الصوتي بين مطلع السورة ومقصدها وبناء فواصلها.

- صفات الحروف التي وردت في المطلع؛ إذ هذه الحروف تتصف بصفات الرخاوة واللين والهمس؛ مما يناسب الانفعالات والمشاعر التي صاحبت القصّ والتي تتلاءم مع ظاهرة الرحمة وشيوعها في هذه السورة خاصة، وهي أصوات انفعالية تعبر عن التوجع والدهشة وما إلى ذلك من التعبيرات الوجدانية(١)، التي تجلت مظاهرها الصوتية في أجواء الإشفاق والحنو والحدب، الذي ميّز أجواء السورة؛ مما جعلها تأخذ طريقها إلى العمق النفسي من خلال تحريك المشاعر، واستثارة العواطف. وهكذا نلحظ تناسق صفات هذه الحروف مع سياق هذه السورة وجوها العام فسياق هذه السورة «معرض للانفعالات والمشاعر القوية، الانفعالات في النفس البشرية، وفي نفس الكون من حولها. فهذا الكون الذي نتصوره جماداً لا حس له يعرض في السياق ذات نفس وحس ومشاعر وانفعالات، تشارك في رسم الجو العام للسورة. حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهدّ استنكاراً ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها. والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة. وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى عليهما السلام»(٢).

كما نجد التناسب بين المطلع والمقصد بيّناً في قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[مريم:٢]؛ إذ إن السورة بنيت على الذكر والرحمة، فالذكر بمعنى التشريف

(١) ينظر: اللسان والإنسان، حسن ظاظا، ص ٣٣.

(٢) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ٤/ ٢٣٠٠.

والتكريم وعلو الدرجة، كل ذلك ظاهر في السورة كما في تشريف وتكريم السيدة: (مريم)، وكما في تشريف وتكريم عباد الله تعالى المخلصين له، وفي مقدمتهم رسله تعالى الذين ذكرهم في هذه السورة على سبيل التشريف والتكريم لهم.

ومن هنا جاء التناسق الصوتي بين مطلع السورة بالحروف المقطعة التي تناسب الرحمة والتشريف، وبين ذكر ذلك صراحة في المطلع أيضا في قوله:﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ ؛ إذ بدأت بالذكر (ذكر) وأضيف الذكر إلى الرحمة: (ذِكْرُ رَحْمَتِ) والرحمة أضيفت إلى الرب: (رَحْمَتِ رَبِّكَ) وكل هذه الإضافات فيها تناسق صوتي يناسب المطلع والمقصد للسورة.

كما تلحظ تكرار حرف: (الراء) في هذا المطلع ثلاث مرات حيث ورد في كل كلمة من كلمات المطلع (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ) ؛ وذلك أن الراء حرف مكرر في ذاتها مما يؤدي إلى زيادة تردد الأمواج الصوتية(١).

فناسب تكرارها في ذاتها تكرارها في كلمات المطلع، مما أحدث تناسقاً صوتياً يتلاقى مع الغرض المقصود من تكرار الرحمة وشيوعها وانتشارها في السورة بصورة بينة.

ومما يتلاءم ويتناسق مع مطلع السورة ومقصدها في انتشار الرحمة فيها رسم كلمة (رحمت) بالتاء المفتوحة مما يدل على كثرة الرحمة، وعدم ربطها أو تقييدها بطائفة دون أخرى، بل هي رحمة عامة وشاملة، مما يتناسق ويتناسب صوتياً مع مقصد السورة.

ومن هنا تجد الرحمة ظاهرة في أكثر من صورة، كما في تكرار مادة (رحمة) كلفظ الرحمة، أو الرحمن، أو ما يدل عليها كلفظ الرب. ولذلك تجدا لفظ: (الرب) تكرر في السورة ثلاثاً وعشرين مرة، كما أن لفظ: (الرحمن) تكرر في السورة ست عشرة

---

(١) ينظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص٨٢.

مرة، بينما لم يرد لفظ الجلالة: (الله) إلا ثمان مرات، وهكذا نلحظ أنّ لفظ (الرب) ورد ما يقرب من ضعفي ورود لفظ الجلالة: (الله) وكذا ورد لفظ: (الرحمن) ضعف عدد مرات ورود لفظ الجلالة: (الله) وهذا يظهر التناسق الصوتي في السورة ظهوراً بينا،وأن هذا التناسق يظهر من مطلع السورة ويتلاقى ويتناغم مع مقصدها وبنائها.

كما أنك تجد مادة الرحمة قد تكررت حتى في مواقف الشدة والعقاب والجزاء مما لا تجده في سورة أخرى كما في تكرار لفظ (الرحمن) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٦٨، ٦٩] وقوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] وقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقوله : ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٨٦ – ٩٣].

ومن صور الرحمة في السورة علو رتبة الجزاء ورفعته كما هو بَيِّنٌ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥] وما في اختيار كلمة: (نحشر) دون غيرها مما يؤدي معناها، وانظر إلى كلمة: (نحشر) وما يقابلها في جزاء المجرمين: (نسوق) لتتبين علو رتبة المتقين وجزائهم، وكذا اختيار كلمة: (وفدا) وما فيها من مد الصوت، مما يتناسق مع فواصل السورة، هذا فضلا عن دلالة الكلمة، مما

يتلاقى ويتلاءم مع الرحمة والتكريم والتشريف في السورة.

ونرى علو رتبة الجزاء أيضا في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ حيث أسند الجعل إلى الرحمن، فهو الذي تولى ذلك، واختيار كلمة ودّا وما توحي به من شيوع المحبة والمودة بين المؤمنين وامتدادها بامتداد الصوت بحرف المد فيها .

كذلك تجد من صور الرحمة؛ سرعة الاستجابة والإنجاد كما في الاستجابة للسيدة : (مريم) حين قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] فجاءها الجواب سريعا: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤، ٢٦] فتلحظ هنا توالي الفاءات التي تدل على سرعة الاستجابة للسيدة (مريم) وتخفيف ما بها من شدة أو ألم كل ذلك في تناسق صوتي عجيب يتلاقى مع بناء السورة ومقصدها.

ومن صور التناسق الصوتي بين مطلع السورة ومقصدها؛ ما تجده في قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] حيث تجد دقة الاختيار في كلمة: (عبده) دون غيرها مما يؤدي معناها، حيث تتناسق كلمة (عبد) مع التضرع والخشوع من جانب زكريا، عليه السلام، وما جاء في دعائه وضراعته لله تعالى، وإضافة العبد لضمير الرب: (رحمة ربك عبده) يتلاقى ويتناسق صوتيا مع ما جاء بعده في قوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٣، ٤] فانظر إلى التناسق بين العبودية المضافة للرب في مطلع السورة، وبين ما ورد من دعائه لربه: **(نادى ربه، قال رب، ولم أكن بدعائك رب)**. فضلاً عن ظهور أثر العبودية في خفوت الصوت وخفائه، وإظهار الوهن والضعف، وظهور الشيب وانتشاره كل ذلك يتناسق صوتيا تناسقا عجيبا ويظهر إعجاز القرآن ويقويه ويدل عليه دلالة ظاهرة.

المبحث الثاني

التناسق الصوتي في صفات المتحدث عنهم

الذي يمعن النظر في سورة مريم ومقاطعها يجد أنها- وإن كان غرضها العام إظهار الرحمة في كافة مقاطعها-تدور حول الحديث عن صفات بعض الأشخاص، سواء منهم من كان يسير على منهج الله كأنبياء الله ورسله أو ممن آمن بهؤلاء الرسل، وصدق دعوتهم، وكما أنه يتحدث عن صفات الذين خرجوا عن منهج الله تعالى، ولم يتبعوا الرسل، ومن ثَمّ كان جزاء كل صنف منهم على ما قدم من أعمال سواء كانت أعمال خير وبر، أو كانت أعمال شر وكفر متلائماً تمام الملاءمة مع هذا العمل من جهة، ومتلائماً ومتناسقاً مع سياق السورة من جهة أخرى.

ومما ورد فيه التناسق الصوتي بصورة واضحة في الحديث عن صفات المتحدث عنهم ممن امتثل أمر الله تعالى ما تجده في قوله تعالى في بيان صفات سيدنا زكريا، عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٣، ٦] حيث تجد التناسب الصوتي البين في بيان صفات سيدنا زكريا، عليه السلام، من إظهار شدة الضعف والوهن، ومدى حاجته إلى الله تعالى حتى يرفع عنه هذا الضعف والوهن، ويعطيه القوة في نفسه حتى يتحمل مشاق وأعباء الرسالة، كما يتمنى أن يهبه الله الولد الذي يكون وارثا له في الرسالة، حتى يبلغها بني إسرائيل تمام البلاغ، فيحصل على رضا ربه تبارك وتعالى.

كما نلحظ ذلك التناسق العجيب بين أصوات الحروف ومعاني الكلمات، فأصوات المد: (الألف- الياء – الواو) حين التلاوة تدل على تفخيم الألفاظ وزيادة معناها من جهة، كما تثير دلالات صوتية تتناسق مع المعاني المعبر عنها ففي قوله

تعالى عن زكريا، عليه السلام: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٣ - ٥] نلحظ أن الامتداد الصوتي في: (نِدَآءً) يشعر بعمق الدعاء الخارج من أعماق زكريا، عليه السلام، والممتد في أفق السماء، كما نستشف منه نفسية الداعي، ونستظهر بعد حاجته وعمقها في نفسه، كما نلحظ أن المد في: (مِن وَرَآءِي) يلقي بظلاله على مدى خوفه على الدين، وأنه لم يطلب الولد لحبه للولد في ذاته، وإنما لكي يحمل أمانة تبليغ الرسالة من بعده، حتى يظل شرع الله ودينه قائما بين الناس، لا ينقطع بموته.

كما يشي باستبطان حاله؛ فهو في مقام المستنجد المستغيث بخالقه، ومن يملك أمر حاجته، وهذه الدلالات مجتمعة أظهرها لنا المد الذي لحق الكلمتين: (نداء) (من ورائي).

ومن يتأمل أصوات المد يجدها تتواءم مع حالات التشكي وبث الحزن فزكريا، عليه السلام، وجد في صوتي الكسرة الطويلة، والفتحة الطويلة، في الكلمات: (**إنِّي، منّي، الموالي، ورائي، وكانت، امرأتي، عاقراً، لي، وليًّا**) متكأ ليبث من خلال هذه الكلمات آهاته ومشاعره. مما يؤكد أنَّ «الممدود في الكلام له صلة بالنفس، في راحة القلب، بمد النفس، وراحة السمع، بحسن النَّغم» (١).

ولا يفوت المتأمِّل أن يلمس الدقة في وضع كلمة: (منِّي) حيث جاءت في موضعها الدقيق الذي أضفى على نسق الآية نغماً إيقاعيّاً متميِّزاً، فلو قدمنا كلمة (منّي) على كلمة العظم نحو: (**وهن مني العظم**)، لشعرنا بما يشبه الكسر في نغم الآية وجرسها؛ ذلك أنّ صوت هذه الكلمة في هذا الموضع الدقيق تتوازن إيقاعيّاً مع صوت كلمة: (إنّي) في صدر الآية هكذا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ ، وهكذا

---

(١) التكرير بين المثير والتأثير، عزّ الدين علي السيد، ص ٦٢.

نلمس أن كلمة: (منّي) تحقق انسجاماً وتناسقاً وإيقاعاً داخليّاً موزوناً، وإنّ أي تغيير لموقعها يحدث خللا في إيقاعها الداخلي(١).

ويتناغـم صوت المد مع حالات التعجب، ويؤدي دوراً إيقاعياً يجسد استبعاد حصـول شـيء ما، وعـدم إمكـانيـة حدوثه، كـما في قـول: (مريـم). عليـها السـلام ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مـريم:٢٠].

فهي، عليها السلام، تتعجب من إمكانية إنجابها الولد، لأنها لم تتزوج، كما أنَّها لم ترتكب جرما، فكيف يأتيها الولد؟!

وهذا المعنى المتعجب منه جسَّدته أصوات المد وكأننا في صوت المد نستشف مزيداً من التعجب من حدوث ذلك. كما نلحظ التلاؤم في كلمة: (أنَّى) وإيثار التعبير بها دون (كيف) التي بمعناها، حيث جاء التعبير بأنّى مجسدا ذلك المعنى بطول النطق وامتداده، ومثله جاءت بقية أصوات المد معبرة عن ذلك التعجب **(يكون ـ لي ـ غلام ـ بغيا)**.

كما أننا نجد لصوت الهمزة أثرا كبيرا في تجسيد المعنى وترسيخه ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان والد إبراهيم، عليه السلام:﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

فقد ساهم تردد صوت الهمزة ـ ست مرات ـ من والد إبراهيم، عليه السلام، في زيادة حدة التهديد والوعيد الموجه إلى إبراهيم عليه السلام.

وبدا والده من خلال هذه الكلمات: **(أراغب ـ أنت ـ آلهتي ـ لئن ـ لأرجمنك)** وكأنه يتعثر في كلامه من شدة حنقه وانفعاله، فمحتوى الآية، تهديد، ووعيد، ونهي، وزجر، ولذا جاءت الهمزة منسجمة ومتناسقة مع هذه المعاني.

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا

(١) ينظر: التصوير الفنّي في القرآن، ص ١٠٦.

وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣].

حيث نلحظ أن كلمة: (فَأَجَآءَهَا) بمعنى: ألجأها، وأصله: جاء، عُدِّي بالهمزة فقيل: « أجاءها، أي: جعله جائيا، ثم أُطلِق مجازاً على إلجاء شيء، إلى شيء كأنه يجئ به إلى ذلك الشيء، ويضطره إلى المجئ إليه »(١).

وصوت الهمزة في: (فَأَجَآءَهَا) يجسد بثقله ومشقته في النطق ثقل ومشقة حال مريم، عليها السلام، وقت المخاض ولا يخفى صعوبة نطق: (فَأَجَآءَهَا) الآتي من كثرة حروفها ومن تكرار صوت الهمزة مرتين فيها « فالهمزة في اللغة العربية من أشق الحروف وأعسرها حين النطق؛ لأن مخرجها فتحة المزمار، ويحسُّ المرء حين ينطق بها كأنه يختنق »(٢).

كما نلحظ أن صوت المدّ يحمل طاقة عاطفية قوية من خلال مدّ الصوت، مما يعبر عن حالة نفسية تجسد شيئاً من الهم النفسي الثقيل الذي ترزخ تحت وطأته مريم، عليها السلام، ويصور صعوبة حالها، حتى كأن ألم المخاض هو الذي هجم عليها، وألمّ بها سريعاً، دون أن يمهلها مدة الحمل المعهودة.

كما أننا نجد أن أثر الصوت يظهر جليا في إبراز الشدة التي كانت فيها السيدة مريم في هذا الموقف العصيب، يتجلى ذلك في اختيار الفاء في قوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ وما في الفاء من معنى السرعة في المجيء وكأنها غير مترقبة أو متوقعة لهذا المجيء، مما يزيد من حيرتها ودهشتها، وعدم معرفتها لكيفية التصرف في هذا الموقف، العصيب؛ ولذلك لم يظهر لها تصرف من تلقاء نفسها في هذا الموقف مقارنة بما حدث لها في الموقف السابق في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

(١) ينظر: الكشاف، ٣/ ١٢، والتحرير والتنوير، ٧/ ٨٥.

(٢) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص٣٥.

قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴾ [مريم:١٦-٢٢] ففي هذا الموقف يظهر أنها تصرفت من نفسها وبإرادتها كما هو بيّن من قوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾... ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ ... ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ فكل هذا فعلته بنفسها، هذا بخلاف موقف المخاض والولادة فمن دهشتها وحيرتها لم يظهر لها تصرف في هذا الموقف، وإنما ظهر التردد والحيرة والندم فقط في قولها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ فهي في هذا الموقف تمنت لو أنها ماتت قبل، ونسيت، فلم يبق لها ذكر أصلاً، فالموقف الأول فيه ثبات منها وثقة واطمئنان، وهذا الموقف فيه حيرة ودهشة،والصوت كان له أثر بين في إبراز كل موقف من مواقفها،عليها السلام.

ولذلك تجد السيدة: (مريم) في سياق المخاض والولادة لا إرادة لها ولا تصرف، وإنما الصوت يبرز أن الموقف هو المتحكم فيها، ولذلك جاء قوله ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وكأنّ المخاض هو الذي ألجأها واضطرها إلى جذع النخلة دون إرادة منها لذلك؛ ومما يدل على عدم اختيارها للمكان الذي تلد فيه ما ورد من أن الجذع كان يابسا لا خضرة فيه ولا ثمر[(١)] وإلا لو كان لها اختيار في المكان لاختارت مكانا مناسبا يوجد فيه ماء وطعام وما يقويها على الولادة.

وفي صفات المتحدث عنهم نلحظ تناسقاً عجيباً بين الكلمة وجرسها الصوتي، فجرس الكلمة يجسد المعنى، الذهني والحالة النفسية، في تناسق بديع. تأمل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٨].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ١١، والكشاف ٣/ ١١، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦١.

فالخرور؛ النزول والهوى إلى الأرض بسرعة، ومنه: خرير الماء، وهو صوت يحدثه الماء عند جريانه بتدفق[1]. ومن يتأمل لفظ: (خروا) بجرسه الصوتي، يجده يُشخِّص الصورة بسرعة متناهية، ويُعبِّر عنها بإيقاع قوي وسريع، وكان من الممكن أن يُستغنى عن هذه اللفظة فيقال مثلاً: إذا تُتلى عليهم سجدوا، لكنّه جيء بها لأنّ المقصود بيان مسارعتهم إلى ذلك حتى كأنّهم يسقطون سقوطاً سريعاً يسمع منه صوت خرير،«فاستعمال (الخرّ) تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم»[2].

فالصوت سواء أكان بالوقوع والسقوط، أم بالتسبيح، له أثر في إظهار سرعة الاستجابة للأمر دون تردد أو تفكير، أو تأخر؛ مما يتناسب مع صفات العباد الذين أنعم الله عليهم من النبيين، ولذلك كان الصوت له أثر في اختيار مادة اللفظ، كما في اختيار:(خروا) دون سجدوا أو نزلوا، مما يعطي معناها العام من دون المعنى الدقيق للفظ: (خروا) مما يدل على سرعة النزول، وعدم التحكم في النفس، وكأنها تُقاد إلى هذا الفعل بشدة، وقوة لا تستطيع معها التَّحكُّم في نفسها وذاتها، وكذا في اختيار لفظ: (سُجَّدا) دون ساجدين، لما في لفظ (سُجَّدا) من سرعة في النطق وعدم الإطالة أو مد الصوت، وبذا تحاكي السرعة في الفعل، كما نلحظ دقة الصوت في نهاية الفاصلة بقوله: (بكيا) مما يدل على سرعة البكاء أيضا وقوته، فضلاً عن أنه يتلاقى مع فواصل الآيات قبله وبعده، ولذا لم يقل: باكين، مثلاً، لأنه لا يتناسب صوتياً مع الفواصل قبله وبعده فضلاً عن ذهاب السرعة والشدة المستفادة من لفظ: (بكيا).

وتأمل قوله تعالى:﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥] تجد أن فعل الأمر: اصطبر،

---

(١) ينظر: لسان العرب، ٤/ ٢٣٤ مادة خرر.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ١/ ٢٠٨، مادة خرّ.

أصله: اصتبر، على وزن: افتعل، قلبت تاء الافتعال طاء لاستثقال اجتماع التاء مع الحرف المطبق؛ لما بينهما من اتفاق المخرج وتباين الصفة، إذ التاء من حروف الهمس، والمطبق من حروف الاستعلاء ، فأبدلت من التاء حرف استعلاء من مخرج المطبق، واختيرت الطاء لكونها من مخرج التاء(١) وصيغة: الافتعال، ترد لإفادة قوّة الفعل، ومعنى الاصطبار : الانحباس، يستعمل مجازا في شدة الصبر على تكاليف العبادة(٢).

وجرس الصاد مع الطاء في اللفظة الواحدة يدل على تفخيمها والمبالغة في إيقاع الفعل. وجرس الكلمة يوحي بشيء يزيد على معنى الصبر على العبادة، فهي تشي بحشد الطاقة، وتعبئة النفس، وتكلُّف الصّبر، وحبسها على العبادة، وكأن روح العبادة ولذتها لا تنال إلا بتلك المصابرة، ولا تفتح منافذها إلا لمن يتجرد لها ويتحفز لها بكل جوارحه، فاختيار اللفظ هنا: (اصطبر) فيه ما يدل على المشقة في هذا الفعل، ولذا جاء على صيغة: (افتعل) التي توحي بالمشقة في العمل.

ومن أهم ظواهر التناسق الصوتي في سورة (مريم) في بيان صفات المتحدث عنهم ما نجده في ظاهرة التكرار، وهي الأكثر إيقاعاً، وذلك نلمسه في أصغر وحدة وهي الحرف، مروراً بالكلمة، ثم الجملة.

ومن ذلك تكرار حرف الفاء في قوله: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ [مريم: ٢٢-٢٤] فتكرار الفاء أربع مرات بما يدل عليه من سرعة في الأحداث التي حدثت للسيدة مريم، يتلاقى ويتناغى مع سياق الرحمة المبثوثة في ثنايا السورة، وكأن ما حدث لها كانت أحداثه سريعة حتى لا تطول معاناتها،

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، ٣/ ٢٩١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٧/ ١٤٢.

ويكثر تعبها نظراً لامتداد وقت الشدة...كما أن مجيء الفاء الأخيرة في قوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ يدل على سرعة استجابة الله تعالى لها، وأنه بمجرد همها وحزنها وشدة تحسرها جاءها الفرج سريعا بمناداة الملك لها، وتطمينه لقلبها، وتهدية روعها، فهي ذات مكانة ومنزلة عند ربها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم: ٢٤-٢٦] فهو لم يطلب منها فقط عدم الحزن بل أمرها بالأكل والشرب وراحة البال وقرار العين، وبين لها ما تقول لقومها إذا سألوها عن هذا الولد: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦] وهذا نهاية الطمأنينة لها؛ حيث إن هناك من يتولى الجواب والدفاع عنها حتى لا تواجه هي قومها بمفردها.

وكما في تكرار ضمير الغيبة في الحديث عن السيدة مريم، (فحملته، فانتبذت، فاتخذت، فأجاءها المخاض، قالت، وكنت، فناداها)، وتكرار ضمائر الغيبة هنا يدل على أنها مسخرة للحدث لا طواعية لها فيه ولا اختيار.

وكما في تكرار السين في قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] ثلاث مرات، مع ما لصوت السين من الهمس الذي يوحي برقة اللفظ ونعومته مما يتلاءم مع حال سيدنا إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه من اللين والشفقة والعطف وشدة الخوف عليه من الكفر وجزاء الكفر من الطرد والبعد عن رحمة الله تعالى.

ويأتي تكرار الكلمات الاشتقاقية ليضفي إيقاعاً موسيقياً من خلال تناسقات صوتية تتوازى عبر تكرار ألفاظ متجانسة صوتيا مثل: (نسيا ـ منسيا ـ إنسيا) مع ما يدل عليه الصوت من أثر في تحمل الشدائد والمكروه الذي حدث للسيدة مريم، عليها السلام. ومن ذلك التكرار في قوله تعالى ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٢، ٣] حيث نلحظ أنّ مجيء المصدر (نِدَآءً) بعد فعله

(نَادَىٰ) قد أضفى صوتاً عذباً نشأ من تكرار هذين اللفظين المتقاربين والمتصلين بجذر اشتقاقي واحد.

وقد يلجأ للتكرار للتعبير عن حالة نفسية يعيشها المرسل وخطرات تجول في عقله فتكرار: (يا أبت) على لسان إبراهيم، عليه السلام، يوحي بمدى خوفه وشفقته ورأفته بأبيه ، كما يوحي بإظهار بنوته له، وأنه بمقتضى تلك البنوة يرجو له الخير والسلامة والنجاة بنفسه من المهالك ومن كل ما يؤذيه.

وهذا التكرار الظاهر في سورة (مريم) لم يرد بطريقة اعتباطية، أو بمعزل عن المعنى، بل ينبغي أن ينظر إليه على أنه وثيق الصلة بالتشكيل الصوتي الذي يهدف لتحقيق الغرض المسوق له الكلام، كما سبق بيان ذلك.

المبحث الثالث

التناسق الصوتي في جزاء المتحدث عنهم

الذي يتأمل التناغم الصوتي في سورة (مريم) يجد أن أثر الصوت يظهر بصورة بينة في تحقيق الغرض المسوق له الكلام، سواء أكان في بيان صفات المتحدث عنهم كما سبق بيانه، أم في جزاء المتحدث عنهم كما سيتضح في هذا المبحث؛ إذ التعبير عن الجزاء يرتبط ارتباطا قويا بالتعبير عن صفات وأعمال المتحدث عنه، ومن هنا يظهر أثر التناسق الصوتي جليا في تقرير جزاء المتحدث عنهم سواء في الخير أو الشر.

فمن يتأمل النص القرآني يلحظ أن الحرف يحمل قيمة تعبيرية موحية ذات جرس خاص له ظل وإيحاء ويشيع منه نغم صوتي له صدى وإيقاع يتناسب ويتناغى مع الجزاء المراد التعبير عنه.

فمثلا تجد أنه في بعض المواضع يتناغم صوت حركة الياء مع حركة النفس في الهدوء والسكينة وإشاعة جو من الطمأنينة والاستقرار النفسي كما في خطاب الله تعالى لمريم، ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٦] ومن يسمع تلاوة هذه الآية يعيش جو السكينة والهدوء المنبعث من أصوات حركة الكسرة الطويلة في: (كلي- اشربي- قري) وعند التأمل في إيقاع هذه الكلمات نجدها ذات إيقاع هادئ ورخي مما يؤكد أن تتابع أفعال الأمر هنا جاء ليبث الطمأنينة والسكينة.

وتلحظ وضوحاً صوتياً شديداً ورنيناً مدويًّاً في أكثر الآيات التي يشيع فيها صوت النون، وذلك يضاعف من قوة إسماع الكلمات، ويجعل للآية إيقاعاً يتواءم مع جلاء معناها، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٣] حيث نجد لصوت الغنة المصاحب للنون إيقاعاً حانياً ينسجم مع الحنوّ من لدن الله اللطيف الممنوح ليحيى، عليه السلام.

كما أنك تجد في بعض المواضع ما يدل على شدة الصوت وقوته، مما يتناسب مع

الجزاء المراد التعبير عنه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فالأزّ: الاستفزاز والتهييج وشدة الإزعاج(١). ومنه: أزّ المرجل أزّا وأزيزا إذا غلا واشتدَّ غليانه حتى يسمع له صوت، وأزّ الشيء حركه شديداً(٢)، ومنه ما يروى أنّه عليه الصلاة والسلام: «كان يصلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل»(٣) وجميع ذلك يدل على الحركة والهيجان. ونلحظ أن مجئ الهمزة يتناسق مع دقة المعنى المراد التعبير عنه، فتؤزهم: بمعنى تقلقهم وتزعجهم، وتكرار حرف الزاء يحدث صوتاً يشبه أزيز القدر إذا اشتد غليانها، وهو يتناسب مع أزيز الشياطين وما توسوس به في صدور أوليائهم، وما تحدثه من اضطراب وتناقض. ومن يتأمل الدلالة اللغوية السابقة لهذه الكلمة يجد أنّ: تؤزّهم أزّا؛ بمعنى: تهزّهم هزّا ولكن النص القرآني اختار حرف الهمزة التي هي أخت الهاء، «لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز، لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك »(٤) وعلى ذلك فتأزهم أقوى من تهزهم، وأزه أبلغ من هزه(٥)، فالتعبير بالأزّ هنا يحكي ويرسم مشهداً يمتلئ بالاضطرابات والوساوس التي تجلب بها الشياطين على أوليائهم حتى تجعل نفوسهم تغلي بها وتطفح، وهذا اللفظ يصور ويجسم العلاقة بين الشياطين وأوليائهم، فإصرارهم وسعيهم لإضلال بني آدم يشبه الماء في المرجل الذي يغلي فيسمع له أزيز من شدة الغليان، وهذه الصورة السمعية والبصرية يصورها هذا اللفظ للمتلقي كي يفهم حقيقة الشياطين وما يضمرون لبني آدم.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، ١٣/ ٢٨٠، مادة (أزز).

(٢) ينظر: لسان العرب، ٥/ ٣٠٧ مادة (أزز).

(٣) رواه أبو داود برقم (٩٠٤) والترمذي في الشمائل ص ٢٥٥، وإسناده قوي وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ١/ ٢٦٤، وقال: صحيح على شرط مسلم، ينظر: فتح الباري ٢/ ٢٠٦.

(٤) الخصائص، ٢/ ١٤٦.

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ١٨ مادة (أزز).

كما أن اختيار الهمزة في (تَؤُزُّهُمْ) يتناسب مع جزاء من استسلم للشيطان وتركه يتحكم فيه وفي عقله وفكره، فهو لا يملك من أمر نفسه شيئا، ولا يستطيع أن يفرق بين ما هو حق ظاهر، وما هو باطل جلي مما جعله لا يفرق بين عبادة ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وبين عبادة الله الذي بيده كل شيء؛ إذ سياق الآية: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨١ – ٨٣]. هذا، بينما تجد في خطاب السيدة مريم أنه جاء التعبير بقوله:﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم:٢٥].

فالهزّ: تحريك الشيء وهززت الشيء فاهتز، أي حركته فتحرك، وكل من خفّ لأمر وارتاح له فقد اهتز له. وأخذته لذلك الأمر هزة: أي أريحية وحركة، واهتزّ النبات أي تحرك لنضارته، واهتزت الأرض: أي تحركت وأنبتت. والهز والهزيز: هو تحريك الإبل في خفتها وقد هزها السير وهزها الحادي: أي تحركت في سيرها بحدائه(١).

وعند التأمل في استخدام كلمة (الهزّ) تتدفق الدلالات والمعاني، فالهز حركة تتميز بالخفة والسرعة، وتتسلل إلى نطاق الشعور لتتسم بالأريحية والحيوية، بل وتحمل دلالات عاطفية يفسرها اهتزاز الإبل للحداء، واهتزاز القلب لسماع الأصوات الحسنة، وهي هنا في سياق خطاب السيدة مريم عليها السلام تحمل معاني الحياة والبشرى والتكريم، فالجذع الذي وقع عليه الهز يحيا وينبت فيسقط التمر والرطب.

والتعبير بالهزّ يتناسب مع حال السيدة مريم وما هي فيه من ضعف خاصة في حالة المخاض، كما أنه يتناسب مع المطلوب هزه وهو الجذع، أي أصل النخلة،

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٧٨٩، ولسان العرب، ٥/ ٤٢٣، مادة هزز.

وهذا لا يتأتى هزه بقوة أو شدة، وإنما يقع هزه ضعيفاً لقوته وتماسكه وثباته في الأرض؛ ولذا جاء الهز واقعاً على الجذع وكأنه صار أداة للهزّ مما يدل على صعوبته وقوته.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٥] تجد الفعل(تُسَٰقِطۡ) بتخفيف السين وحذف إحدى التاءين[١] والأصل تتساقط والإيقاع الصوتي للفعل بعد حذف إحدى تائيه يشير إلى قصر المدة وسرعة الزمن الذي يتطلبه سقوط الثمر وهكذا نلحظ أن النّص القرآني (يحذف من الفعل للدلالة على أنّ الحدث أقل مما لم يحذف منه وأن زمنه أقصر ونحو ذلك فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث)[٢].

وتأمل التناسق الصوتي بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين في قوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦] فكلمة (وَفۡدٗا) بجرسها ومعناها تحكي صورة الإكرام والتبجيل، وفيها تشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك الذين يغدون للإكرام والتبجيل، وترسم الآية ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٦] صورة مهينة لحشر المجرمين، فالسوق من: (ساق النعم، فانساقت)[٣]، فالمجرمون يساقون كالدواب والأنعام التي تُساق إلى الماء عطاشاً، فانظر إلى التضاد وما يحدثه من تناسق صوتي يحقق الغرض المسوق له الكلام من الدلالة على غاية الإكرام والتبجيل والإنعام للمؤمنين، وغاية الإهانة والتحقير للكافرين.

ومما تجده واضحاً بيناً في سورة (مريم) **التناسب والتلاؤم والتناسق الصوتي بين**

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢/ ٣١٨، و البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، النشار، ٢/ ٦٣.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص ١١.

(٣) أساس البلاغة، مادة سوق.

الصفات والجزاء مما يعد مظهرا من مظاهر الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

تأمل ما يضفيه صوت الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم: ٧٨] وطلع الشيء بمعنى: ظهر عليه واعتلاه(٣)، فصوت الهمزة يناسب بمشقته مشقة من يحاول صعود الجبل الشامخ في ذراه وهذا المعنى لا يتصور لو قيل ادعى الغيب ونحوه ؛ ولذا جاء بعده قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] وقد اعتمد أيضا على همزة أم في الاستفهام، حتى يتحقق التناسق الصوتي بين جزئي الكلام، كما جاء الإنكار عليهم في عدم علمهم بالغيب أو وجود وعد وعهد بعدم عذابهم مما يتناسب ويتلاقى مع الجزاء المترتب على ذلك بقوله: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٩، ٨٠] فانظر إلى قوة الصوت وشدة الردع في قوله (كَلَّا)، مما يتناسب مع قوة الهمزة في الاستفهام وقوة الإنكار، كما تجد القوة في الصوت في قوله: (سَنَكْتُبُ) فزيادة السين مع ما فيه من صفات يدل على قوة الكتابة وتأكيدها، وأن هذا الادعاء الذي قالوه سيجزون عليه دون أن ينقص منه شيء، بل إن العذاب سيزداد ويمتد إلى ما لا نهاية كما يفهم من قوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ وانظر إلى هذه اللام التي عدّت الفعل (نمد)، وهو مما يتعدى بنفسه، ولكن هناك فرق بين (**نمده**) و(**نمد له**)، حيث حولت هذه اللام المدّ من التكريم والعون إلى الإهانة والعذاب، ومد العذاب فضلاً عما فيه من تناغم صوتي يتلاقى مع فواصل سورة (مريم)، فضلاً عن ذلك يتلاقى مع الشدة والقوة الموجودة في الصفات، مما يدل على التناغم والتناسب الصوتي في السورة؛ ونظراً لأن الجزاء من جنس العمل عاملهم الله بجنس عملهم فقال تعالى ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] ، ومن يتأمل في التدفق الصوتي في (نمدُّ ـ مدًّا) يستشعر امتداد العذاب وتدفقه بحيث لا ينقطع، فكما كان

(١) ينظر: لسان العرب ٨/ ٢٣٦، مادة (طلع).

عملهم التمادي في الطغيان في الدنيا جاء عذابهم ممتداً في تواصل وامتداد لا ينقطع.

وتأمل ما يوحيه حرف الزاي في قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ [مريم: ٢٥] وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣] فحرف الزاي من الحروف الأسلية لأنَّ مبدأها أسلة اللسان(١) وهو يقوم على الاهتزاز الصوتي وارتباطه بالأصوات الشديدة كالهمزة، يميزه بحدة خاصّة تجعله يوحي بالشدة والحركة المضطربة، مما يتلاقى مع تضعيف عين الكلمة، وهذا يتلاقى مع الجزاء المنصوص عليه في قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦] وما في المد في: (تساقط) من امتداد الصوت مما يتناسب ويتناسق مع امتداد الجزاء وكثرة الرطب التي نزلت على السيدة مريم – عليها السلام – ولذا لم يأت التعبير مثلا بكلمة: تسقط أو تقع أو تنزل. مما لا يحقق التناسق الصوتي المراد والذي به يتحقق كثرة الرطب وامتداد نزوله وتتابعه وعدم انقطاعه. فضلاً عن أن التشديد في (هزّي) يتلاقى مع القراءة الأخرى في: (تساقط) حيث قرأ عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة ﴿تَسَّاقَطۡ﴾ بالتاء من تساقط وتشديد السين، بمعنى: تتساقط عليك النخلة رطباً جنياً، ثم أدغمت إحدى التاءين في الأخرى فشددت، وكأنّ الذين قرؤوا كذلك وجهوا معنى الكلام إلى: وهزّي إليك بجذع النخلة تسّاقط النخلة عليك رطباً(٢).

وتأمل التناسب الصوتي بين الصفات والجزاء في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ فَوَرَبِّكَ

(١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٦٤.

(٢) قرأها حفص (تُساقِط) بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف، وقرأها حمزة: (تَسَاقَط) بفتح التاء والقاف وتخفيف السين، وقرأها يعقوب: (يَسَّاقَط) بياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف، ووافقه شعبة في أحد الوجهين، وقرأها الباقون: (تَسَّاقَط) بتاء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف، ومعهم شعبة في الوجه الثاني له.

ينظر: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٣١٨، والبدور الزاهرة، ٢/ ٦٣.

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٩]. حيث تجد أن التعبير جاء أولاً بـ ﴿الْإِنسَانُ﴾ في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ وقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾ حيث إن اختيار مادة حروف الأنس مما يدل على أن الإنسان قد آنس واطمأن بغيره من بني جنسه، مما يظن أنه يتقوى بهم، ويغتر بهم، ويلهو معهم، دون أن يقال مثلاً: ويقول الكافر، أو ويقول العبد أو نحو ذلك مما لا يعطي دلالة الأنس بالغير، والاطمئنان والثقة الموجود في مادة الأنس، ولذلك تجد التناغم والتناسق الصوتي بينا في جزاء ذلك الإنسان المغتر بتذكيره أولا أنه خلق وحيداً، ولم يك شيئا يذكر، فضلاً عن أن يغتر أو يأنس بغيره، ثمّ يأتي الجزاء المؤكد بالقسم: (فوربك) على حشره وإحضاره حول جهنم جاثيا على ركبتيه، ثم التأكيد على عدم الناصر أو المعين ممن كان يأنس بهم، أو يغتر بهم، وأن الله تعالى سينزع من كل شيعة وفرقة أقواهم وأشدهم حتى لا يبقى أي أمل في نصرة أو معونة ممن اغتر بهم.

كما أنك تجد أن الأفعال: (**لنحشرنّهم- لنحضرنّهم - لننزعنّ**) ترسم بجرسها ملامح المشهد وتزيده حدّة وشدة وقد جاءت على هذا النسق البديع وهي على الترتيب: الحشر- الإحضار-النزع، وكل صورة من هذه الصور جاءت الآية ببيان ما يصاحبها.

- فعملية الحشر تصاحبها صورة جمع المكذبين والشياطين في صعيد واحد.

- وعملية الإحضار تصاحبها صورة الجثو على الرُّكب حول جهنَّم.

- وعملية النّزع تصاحبها صورة أخذ العتاة الشداد من بين المحضرين لتميزهم بشدة العتو والفجور.

وهذه الصور؛ الحشر، ثم الإحضار، ثم النزع، تلقي في سطر واحد بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصور ذلك مرحلة بعد أخرى، وكل هذا يتلاقى

مع الصفات المذكورة لهذا الإنسان المكذب المتكبر والمغتر بمن معه من بني جنسه، وعند تأمل صيغ هذه الألفاظ (لنحشرنَّهم- لنحضرنَّهم- لننزعنَّ) نجد الفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث، والمؤكد باللام والنون المشددة، يحدث جرسا وضغطا عند النطق بها، وهذا الجرس الغليظ يشير إلى القوة والعنف اللذين يسودان جو الآية، ويمدنا بإيقاع صوتي يتناسق فيه الجزاء مع الصفات.

وتأمل كلمة (إدًّا) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩] تجدها مصورة بجرسها وبمعناها الأمر الفظيع المنكر، الذي تقشعر منه القلوب؛ فالأدّ والإدّة، الأمر الفظيع العظيم والداهية الكبرى[1]. وهذا اللفظ تصاحبه جلبة وقوّة وهي تحاكي بجرسها فظاعة المنكر العظيم الذي ادعاه المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى.

وتأمل الألفاظ التي تحاكي شدة جرمهم في قوله تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] فالألفاظ: (**يتفطرنَّ ـ وتنشق ـ وتخرّ**) كلها ألفاظ مجسدة بجرسها، لهذه المخلوقات الجامدة: (**السماء، والأرض، والجبال**) حتى ليخيّل للقارئ أنّ الحياة تدبّ فيها فتتفاعل وتموج بالحركة فهي تتفطر وتتصدع وتخرّ من هول ما يدعيه المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى. وهكذا نلحظ أنَّ «جرس الألفاظ، وإيقاع العبارات يشارك ظلال المشهد في رسم الجو، جو الغضب والغيرة والانتفاض»[2].وتأمل التناسق الصوتي الحادث من التضاد والتقابل بين صفات السماء وصفات الأرض، وصفات الجبال حيث ذكر لكل واحد من الصفات ما يناسبه من جهة، ويقابل الصفة الأخرى فيما يقابله من جهة أخرى.. فالسموات يتفطرن، والأرض تتشقق،

---

(١) ينظر: لسان العرب، ٣/ ٧١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٣٢٠.

والجبال تخر هدا.. كل ذلك الهول والفزع الذي حدث لأقوى المخلوقات يتناسب مع فظاعة وشدة وعظم ما قاله الكفار حينما نسبوا لله الولد - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فهذا القول العظيم الشنيع يتناسب مع ما حدث لهذه الأجرام.

وأشير هنا إلى أنّ فواصل الآيات في صفات المتحدث عنهم وجزائهم في سورة مريم تتنوع باختلاف مضمون الآيات المتتابعة، مراعى فيها المعنى والسياق وجو القصّ وسرد الأحداث، فتنوع الإيقاع الموسيقي، والفاصلة القرآنية، بتنوع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة حيث تأتلق صوتيا مع ما يدل عليه الكلام.(١)، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى عليهما السلام، فتسير الفاصلة هكذا:(ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ..خَفِيًّا ..شَقِيًّا .. وَلِيًّا ...).

وتليها قصة مريم وعيسى عليهما السلام، فتسير الفاصلة على النظام نفسه. (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ...سَوِيًّا ...تَقِيًّا ...).

إلى أن ينتهي القصّ، ويجيء التعقيب، لتقرير حقيقة عيسى بن مريم، والفصل في قضية بنوته فيختلف نظام الفواصل حيث تطول الفاصلة، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية، على النحو التالي: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ...﴾.

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخية الممدودة على هذا النحو: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ... الآيات.

حتى إذا جاء سياق الحديث عن المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، يتغير الإيقاع الموسيقي وجرس الفاصلة على هذا النحو: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ

(١) ينظر فصل: التناسق الفني في القرآن، في كتاب: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ١١٠.

ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴾... الآيات.

وفي موضع الاستنكار الفظيع يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ ...الآيات.

«وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو؛ ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى»[١].

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٣٠١.

المبحث الرابع

التناسق الصوتي في ختام السورة وصلته بالمطلع والمقصد

الذي يديم النظر في ختام سورة مريم يجد أنه يتناسق مع مطلعها ومقصدها تناسقا بينا ، وهذا ما يظهر جليا في الآتي:

أولاً: التناسق بين ختام السورة ومطلعها:

يظهر التناسق الصوتي بوضوح بين ختام سورة: (مريم) ومطلعها سواء أكان تناسقاً معنوياً أم لفظياً، وذلك على النحو التالي:

١ – التناسق المعنوي:

الذي يدقق النظر في ختام سورة مريم يجد أن التناسب المعنوي بينه وبين المطلع يظهر بدءا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٩٦، ٩٧] فهذا يتناسب مع قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢] وقوله: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٧].

فالإيمان والعمل الصالح الوارد في ختام السورة في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مما يتناسب مع ذكر الرحمة في قوله: ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ ﴾؛ إذ الإيمان والعمل الصالح من مسببات الرحمة ودواعيها، وكأن ختام السورة بيان وتعليل لسبب الرحمة المنثورة في ثنايا السورة، هذا فضلاً عن أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب القرب إلى الله تعالى مما يتحقق معه إجابة دعاء سيدنا زكريا عليه السلام ، وإزاحة الهم عن السيدة: (مريم) عليها السلام.

كما أن ذكر الرحمن والود في قوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ مما يتوافق مع دوران السورة على الرحمة من أولها إلى آخرها كما سبق بيان ذلك في أكثر من موضع، كما يتلاقي مع الود الذي حققه الله لسيدنا زكريا بإجابة دعوته وإعطائه الولد رغم كبر

سنه وانقطاع الأسباب العادية التي يتحقق معها الولد في المعتاد، وإعطائه آية على صدق تبشير الملائكة له بالولد، كما أن الود يظهر أيضاً في جانب مريم عليها السلام في أكثر من موضع كما هو بين في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ يظهر التناسب والتناسق بين التيسير والبشرى وما هو ظاهر في مطلع السورة من البشرى بالولد لسيدنا: زكريا، عليه السلام، والسيدة: (مريم) عليها السلام، وتيسير ولادة: يحيى، وعيسى، عليهما السلام، كما أن التقوى تتناسب مع صفات المتحدث عنهم في النصف الأول من السورة، وما تدور عليه صفات المتحدث عنهم من إيمان وتقوى وعمل صالح، كما هو بين في صفات سيدنا زكريا ويحيى، عليهما السلام، والسيدة: مريم، عليها السلام، وصفات سيدنا عيسى وإبراهيم عليهما السلام، فكل هؤلاء تمثل التقوى صفة رئيسة من صفاتهم.

٢ - التناسق اللفظي:

جاء التناسق اللفظي بين ختام السورة ومطلعها متمثلا في الإجمال والتفصيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾ [مريم: ٩٦-٩٨] ففي قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ نلحظ أنَّ اسم الموصول (الذين) بما يستلزمه من علم المخاطب بالصلة هو؛ إجمال لما فصل من قصص الأنبياء في السورة بدءاً من زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام،كل هؤلاء ممن يشملهم اسم الموصول (الذين) في الآية.

كما أن التنكير في قوله: (**وداً، قوماً، قرنٍ، من أحدٍ، ركزاً**) وما فيه من إبهام مما يقابل التفصيل المذكور قبل ذلك في السورة سواء في الرحمة أو في العذاب.

ثانياً: التناسق بين ختام السورة ومقصدها:

الذي يدقق النظر في ختام سورة مريم يجد أنه يتناسق تناسقا مع مقصدها؛ إذ المقصد الرئيس في السورة قائم على الرحمة في الأول، وهي رحمة مطلقة بدءاً من قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم:٢] إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨] فكل ما ذكر في هذا الجزء إنما هو قائم على الرحمة المطلقة في كل مراحل المتحدث عنهم من صفات وعمل وجزاء، فمثلاً في قصة موسى عليه السلام تجد أن الله تعالى تجنب ذكر كل ما فيه شدة مما ذكر في غيرها من السور، فلم يذكر هنا الإلقاء له في اليم، أو خوف أمه عليه، أو صراعه مع فرعون وقومه، أو خروجه من بلده خائفا يترقب، أو غير ذلك مما فيه شدة وقسوة على سيدنا: موسى، عليه السلام، مما لا يناسب الرحمة الممتدة والمبثوثة في سورة مريم عليها السلام.

والمقطع الثاني من السورة قائم على الإنذار والعذاب ، وهذا يبدأ من قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩] إلى قبيل الخاتمة عند قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥].

وما ذكر من مقصد السورة في المقطعين يتناسب مع خاتمتها؛ إذ الخاتمة أيضا قائمة على مقطعين، الأول رحمة في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ والثاني عذاب في قوله: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ

أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ وهذا مما يدل على مدى التناسق والتناسب بين ختام سورة: (مريم) ومقصدها مما لا تجد له نظيرا في غير القرآن الكريم.

الخاتمـة

هذه الدراسة تفتح الباب للنظر إلى الأسلوب القرآني من زاوية مهمة في الدرس البلاغي وهو تنوع الصوت القرآني وأثر التناسق الصوتي في الإعجاز؛ مما يجعل التعبير القرآني نسيجا وحده لا يوجد له نظائر في كلام العرب ، ومن ثَم وصل إلى حد الإعجاز.

وبعد الانتهاء من دراسة التناسق الصوتي في القرآن الكريم وتطبيق ذلك على سورة: (مريم)، يتضح الكثير من النتائج التي يمكن رصدها وتسجيلها ، ومن ذلك:

- أن للصوت اللغوي أهمية كبرى في دراسة النّص القرآني الكريم فهو اللبنة الأساس المكونة للكلمات والجمل.
- دقة اختيار القرآن الكريم للأصوات من حيث سهولتها وحسن ائتلافها وإحساس الذوق بجمالها وعذوبة جرسها.
- تجسيد الأصوات للمعاني المعبّر عنها في القرآن الكريم جاء في دقة متناهية وتفصيل معجز.
- تعد المحاكاة بهيئة الصوت من أنواع التصوير الفنّي في القرآن الكريم وهي سرّ من أسرار الإعجاز الصوتي له.
- تكرار الرحمة في سورة: (مريم)، أكثر من غيرها من سور القرآن الكريم مما يتناسب مع مقصد السورة وغرضها.
- التلاؤم الصوتي بين معاني الرحمة والتكريم وصفات وهيئات الحروف في السورة.
- ظهور أصوات المد كصوت رئيس في سورة (مريم) مما يتناسق مع الرحمة المبثوثة في ثناياها.

ومع ذلك فإن: (التناسق الصوتي في القرآن الكريم) يحتاج إلى أكثر من دراسة، متخصصة تتناول على سبيل المثال:

– بيان أثر صوت معين في إعجاز القرآن الكريم.

– بيان أثر التنغيم أو النبر في إعجاز القرآن الكريم.

– بيان أثر اختلاف الصوت في القراءات على أداء المعنى المراد.

– بيان أثر صفات الحروف من تفخم أو ترقيق أو همس أو جهر في أداء المعنى المراد وصلة ذلك بالإعجاز.

إلى غير ذلك من الدراسات التطبيقية المتنوعة التي تهتم بالصوت القرآني وربط ذلك بالإعجاز.

فهرس المصادر والمراجع

١- **الإتقان في علوم القرآن**، السيوطي، تحقيق فواز زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢- **أساس البلاغة**، الزمخشري، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة بيروت، عام ١٩٨٢م.

٣- **أسس التحليل البلاغي بين النظرية والتطبيق**، علي عبد الحميد عيسى، مطبعة السلاموني بأسيوط، طبعة أولى.

٤- **الأصوات اللغوية**، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، القاهرة عام ١٩٧٥م.

٥- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦- **إعجاز القرآن، الباقلاني**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف.

٧- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٠م.

٨- **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**، النشار، تحقيق علي معوض وآخرين.

٩- **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، تحقيق يوسف المرعشي وآخرين، دار المعلافة، بيروت، عام ١٩٩٠م.

١٠- **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**،فاضل السامرائي، دار عمّار الطبعة الثانية عام ٢٠٠١م.

١١- **البيان والتبيين**، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

١٢- **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، دار سحنون، تونس.

١٣- **التصوير الفنّي في القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، ١٩٨٣م.

١٤- **تفسير البسيط، الواحدي**، تحقيق مجموعة من الباحثين، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، عام ١٤٣٠هـ.

١٥- **التكرير بين المثير والتأثير**، عزّ الدين علي السيد، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م.

١٦- **تهذيب اللغة**، الأزهري، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي عام ١٩٦٧م.

١٧- **الخصائص**، ابن جني، تحقيق محمد النجار.

١٨- **رسالة أسباب حدوث الحروف**، ابن سينا، تحقيق محمد حسان ويحيى مير، دمشق مجمع اللغة العربية.

١٩- **شرح التصريح على التوضيح**، خالد الازهري.

٢٠- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٨٦م.

٢١- **فقه اللغة وخصائص العربية**، محمد المبارك، دار ابن الأثير.

٢٢- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق الطبعة السابعة عشر، ١٩٩٢م.

٢٣- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي،الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م.

٢٤- **اللسان والإنسان**، حسن ظاظا، دار القلم، بيروت، عام ١٩٩٠م.

٢٥- **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٦- **المحرر الوجيز**، ابن عطية، تحقيق عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٤١٣هـ.

٢٧- **المعجم الوسيط**، إبراهيم أنيس، دار المعارف.

٢٨- **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصبهاني، تحقيق محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٩- **موسيقى الشعر**، إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة.

٣٠- **النشر في القراءات العشر**، ابن الجزري، تحقيق علي الضبّاع بيروت دار الكتب العلمية.

٣١- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٤١٥هـ.

٣٢- **النكت في إعجاز القرآن**، الرماني، دار المعارف، مصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٣٠٧
المقدمة	٣٠٨
التمهيد	٣١١
مفهوم النسق الصوتي	٣١١
أهمية التناسق الصوتي وأثره في الإعجاز	٣١٣
أسس التناسق الصوتي في سورة مريم	٣١٥
المبحث الأول: التناسق الصوتي في مطلع السورة وصلته بالمقصد	٣١٨
المبحث الثاني: التناسق الصوتي في صفات المتحدث عنهم	٣٢٣
المبحث الثالث: التناسق الصوتي في جزاء المتحدث عنهم	٣٣٢
المبحث الرابع: التناسق الصوتي في ختام السورة وصلته بالمطلع والمقصد	٣٤٢
أولاً: التناسق بين ختام السورة ومطلعها	٣٤٢
١ - التناسق المعنوي	٣٤٢
٢ - التناسق اللفظي	٣٤٣
ثانياً: التناسق بين ختام السورة ومقصدها	٣٤٤
الخاتمة	٣٤٦
فهرس المصادر والمراجع	٣٤٨
فهرس الموضوعات	٣٥٠